مجمع الفقه الإسلامي

مجلة المدونة

مجلة علمية فصلية محكّمة
تعنى بالدراسات والأبحاث الشرعية تصدر عن
مجمع الفقه الإسلامي بالهند

السنة الرابعة: العدد (15)
ربيع الآخر 1439هـ / يناير (كانون الثاني) 2018م

الترقيم الدولي (ISSN)
2349-1884

منهج الحديث النبوي الشريف في الكشف عن السنن الإلهية

الدكتور رشيد كُهُوس

أستاذ بكلية أصول الدين بتطوان جامعة عبد المالك السعدي-المغرب

مقدمة:

الحمد لله الواحد القهار، العزيز الغفار، مقدر الأقدار، مصرف الأمور، مكور الليل على النهار، تذكرة لأولي القلوب والأبصار، وتبصرة لذوي الألباب والاعتبار. والصلاة والسلام على سيدنا وحبيبنا ومولانا محمد سيد الأبرار وزين المرسلين الأخيار وأكرم من أظلم عليه الليل وأشرق النهار، وعلى آله الطيبين الأطهار وصحابته المقربيت الأخيار.

أمابعد؛

فإن السنن الإلهية هي القوانين التي تحكم الحياة الكونية والحياة الإنسانية، وهي برهان على قدرة الله تعالى وإرادته وحكمته، تمضي بلا استثناء، وتجري قوانينها على كافة المخلوقات... لذلك توقف صلاح المجتمعات البشرية وفلاحها ونهوضها وسقوطها على مدى اهتدائها بهدايات السنن، وامتثالها بأحكامها، وعملها بمقتضياتها، والسير في طريقها المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا التواء.

ولما كانت هذه السنن الإلهية بهذا القدر الأعلى، والمحل الأسنى، والأنموذج الأمثل لصياغة الحياة وبناء الشخصية المسلمة، والعمران الإنساني، أولاها سيدنا رسول الله ﷺ عناية فائقة، واهتم بها اهتماما بالغا، وكانت كل أقواله وأفعاله ﷺ تطبيقًا وامتثالًا لهذه السنن، كما كان ﷺ يرشد أصحابه ﷺ إلى سنن الله في من سبقهم بالإيمان من أتباع الأنبياء والمرسلين، ليحذوا حذوهم ويقتفوا آثارهم، ويحذرهم من السير على سنن المكذبين والظالمين والمنكرين ليبتعدوا عنها ويجتنبوها، ويبين أسباب مرض الأمم السابقة وهلاكها وحلول عقاب الله فيها، ويرشدهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم في الدنيا والآخرة إذا ساروا على سكة السنن الإلهية.

وهكذا فباستقراء نصوص الحديث النبوي الشريف نجد أن السنن الإلهية تحتل مساحة واسعة فيها، وقد كان منهج النبي ﷺ في بيانها؛ إما مصرحا بذكرها، وإما شارحا أسبابها ونتائجها، وإما ضاربا الأمثال والتشبيهات للكشف عنها، وإما مذكرا بقصص السابقين وما آل إليه أمرهم سلبا أو إيجابا وفق أخذهم بالسنن أو تنكبهم عنها، وإما في سياق تقرير الأحكام والتشريعات، أو أثناء الحديث عن فتن آخر الزمان...

أسئلة البحث:

- ما هي تجليات العناية النبوية بالفقه السنني؟
- كيف قرر الحديث النبوي الشريف السنن الإلهية وحث على لزوم غرزها؟
- هل جاء السنن الإلهية في الحديث النبوي الشريف بأسلوب واحد أم تعددت أساليبها وصيغها وسياقاتها؟

أهداف البحث:

- إبراز عناية الحديث النبوي الشريف بالسنن الإلهية.
- بيان أساليب الحديث النبوي الشريف في الكشف عن السنن الإلهية.
- الكشف عن علاقة السنن الإلهية بالحديث النبوي.

خطة البحث:

تحقيقا للأهداف السابقة جاء هذا البحث في سبعة فروع وهي:

الفرع الأول: بيان السنن الإلهية عن طريق قصص السابقين.

الفرع الثاني: عرض السنن الإلهية من خلال الأمثال النبوية.

الفرع الثالث: بيان السنن الإلهية من خلال الأحاديث التي ورد فيها ربط الأسباب بمسبباتها.

الفرع الرابع: الكشف عن السنن الإلهية أثناء الحديث عن فتن آخر الزمان.

الفرع الخامس: بيان السنن الإلهية من خلال ما يترتب على أفعال البشر السيئة من نتائج.

الفرع السادس: تقرير السنن الإلهية عن طريق التوكيد في سياق القسم.

الفرع السابع: عرض السنن الإلهية في سياق جملة الشرط والجزاء.

منهج البحث:

يعتمد هذا البحث المنهج الاستقرائي التحليلي؛ وذلك باستقراء الأحاديث النبوية الشريف المتعلقة بالسنن الإلهية، من أجل الوقوف على الأسلوب النبوي في الدلالة على السنن الإلهية، مع تحليل تلك النصوص الحديثية لبيان سننيتها.

الفرع الأول: بيان السنن الإلهية عن طريق قصص السابقين

إن التاريخ البشري يعيد نفسه، والأحداث التاريخية تتكرر وتتشابه؛ لأن التاريخ يتحرك وفق سنن إلهية ثابتة ومطردة، وهو المرآة التي تعكس جريان سنن الله تعالى على البشرية جمعاء، ولهذا عني النبي ﷺ عناية بالغة بلفت الأنظار وتنبيه العقول إلى قصص السابقين، وجاء في سنته الغراء نماذج كثيرة منها، حتى يتبين للناس عاقبة النصر والسعادة في الدنيا والآخرة للمؤمنين برسلهم وأنبيائهم، وعاقبة الهلاك والبوار للمنكرين المكذبين برسالة السماء.

ومن أمثلة قصص السابقين التي عرضتها السنة النبوية ما يلي:

- عَنْ صُهَيْبٍ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ، قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ، فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ، إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ، فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ، فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ، فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا، فَقَالَ: اللهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ، حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَمَضَى النَّاسُ، فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ، وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ، فَقَالَ: مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ، إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ، فَآمَنَ بِاللهِ فَشَفَاهُ اللهُ، فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي، قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ، فَجِيءَ بِالْغُلَامِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَعَا بِالْمِنْشَارِ، فَوَضَعَ الْمِنشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى فَوَضَعَ الْمِنشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَقَالَ: اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ، فَذَهَبُوا

بِهِ، فَقَالَ: اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ، فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللهِ، رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ، فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ، فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا، أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ: يَا أُمَّهْ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ»[1].

وهذا الحديث النبوي الشريف يكشف عن سنة إلهية مطردة، ألا وهي سنة الابتلاء عامة وابتلاء المؤمنين بالمحنة على أيدي الكافرين خاصة، وما يتعرض له أهل الحق من أنواع التعذيب والاضطهاد والمحن والآلام في كل زمان ومكان.

- وعن خباب ﷺ قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً، وَهُوَ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ وَقَدْ لَقِينَا مِنَ المُشْرِكِينَ شِدَّةً، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلاَ تَدْعُو اللَّهَ؟ فَقَعَدَ وَهُوَ مُحْمَرٌّ وَجْهُهُ، فَقَالَ: «**لَقَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ لَيُمْشَطُ بِمِشَاطِ الحَدِيدِ، مَا دُونَ عِظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُوضَعُ المِنْشَارُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَيْنِ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَلَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، مَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ**»، زَادَ بَيَانٌ: «**وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ**»[2].

هكذا ينبه النبي ﷺ أصحابه ﷺ -لما اشتد بهم الابتلاء والمحنة- على سنة الله في ابتلاء المؤمنين المستميتين في الصبر على دين الحق والثبات على طريق الهدى، ويخبرهم بما لاقاه المؤمنون من الأمم السابقة من ابتلاء شديد ليفتنوا عن دينه ويصدوا عنه، فصبروا تحملا واحتسابا، حتى يمكن الله لدينه، وينشر نوره في ربوع الأرض كلها.

- قَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِمَالٍ مِنَ البَحْرَيْنِ، فَسَمِعَتِ الأَنْصَارُ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ، فَوَافَتْ صَلاَةَ الصُّبْحِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا صَلَّى بِهِمُ الفَجْرَ انْصَرَفَ، فَتَعَرَّضُوا لَهُ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَآهُمْ وَقَالَ: «**أَظُنُّكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدْ جَاءَ بِشَيْءٍ؟**»، قَالُوا: أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «**فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ،**

---

[1] صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام، ح3005.

[2] صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، بَابُ مَا لَقِيَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ مِنَ المُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ، ح3639.

فَوَاللَّهِ لاَ الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»[1].

"إن التنافس في الدنيا وجمع مالها وحب الاستئثار به من أسباب الهلاك؛ لأن ذلك يؤدي إلى إضمار الأضغان والأحقاد، وتربية داء الحسد ثم العداوة ثم المجاهرة والمدابرة، وفي ذلك هلاك للمجتمع"[2].

وهكذا يبين النبي ﷺ سنة الله في هلاك الأمم، ويحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها؛ لأن ذلك يستوجب عقاب الله تعالى.

الفرع الثاني: عرض السنن الإلهية من خلال الأمثال النبوية

إن للأمثال أهمية كبيرة لتقريب المراد، وتفهيم المعنى، وإيصاله إلى ذهن السامع، وإحضاره في نفسه بصورة المثال الذي مثل به، فإنه قد يكون أقرب إلى تعقله وفهمه وضبطه واستحضاره له باستحضار نظيره؛ فإن النفس تأنس بالنظائر والأشباه الأنس التام، وتنفر من الغربة والوحدة وعدم النظير؛ ففي الأمثال من تأنيس النفس وسرعة قبولها وانقيادها لما ضرب لها مثله من الحق أمر لا يجحده أحد، ولا ينكره، وكلما ظهرت لها الأمثال ازداد المعنى ظهورا ووضوحا، فالأمثال شواهد المعنى المراد، ومزكية له[3].

وقد وردت أحاديث كثيرة دالة على ضرب الأمثال للاعتبار والاتعاظ وقياس الشيء بنظيره.

- ومن ذلك ما رواه النُّعْمَانُ بن بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا**»[4].

إنه تصوير نبوي محكم للمجتمع الذي يتعاون أهله على البر والتقوى، والذي يتعاون على الإثم والعدوان، تصوير دقيق لسنن الله تعالى في الأجسام والمجتمعات، فإذا كانت السفينة يحكمها قانون الطفو فإن المجتمع يحكمه قانون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يقول الدكتور شريف الخطيب: "وإنما تعم سنة التغيير في المجتمع كله؛ حتى ولو كان ما بالنفوس من فريق دون فريق، وإنما يكون ذلك بسبب تهاون الفريق الآخر وتقصيره في الأخذ على أيدي تلك الفئة التي

---

[1] صحيح البخاري، كتاب الجزية، بَابُ الجِزْيَةِ وَالمُوَادَعَةِ مَعَ أَهْلِ الحَرْبِ، ح2988. صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، ح2961.

[2] أسباب هلاك الأمم وسنة الله في القوم المجرمين، عبد الله التليدي، ص64.

[3] إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، 1/182-183.

[4] صحيح البخاري، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، ح2361.

غيرت ما بأنفسها، أو بسبب رضاهم وسكوتهم عما فعلوا"[1].

- عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»[2].
- وعَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ**»[3].

إنه لبيان من أوتي جوامع الكلم ﷺ لسنة الله في الوحدة والأخوة والائتلاف، والدعوة إلى التعاون والتحاب والتعاطف بين المسلمين ونبذ الفرقة بينهم، عز المسلمين في وحدتهم واعتصامهم بحبل الله المتين، وذلهم وفشلهم وذهاب قوتهم في تخاذلهم وتشتتهم واختلاف قلوبهم، وسنة الله لا تحابي أحدا.

- عَن أَبِي مُوسَى ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ: يَا قَوْمِ، إِنِّي رَأَيْتُ الجَيْشَ بِعَيْنَيَّ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ العُرْيَانُ، فَالنَّجَاءَ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَأَدْلَجُوا، فَانْطَلَقُوا عَلَى مَهَلِهِمْ فَنَجَوْا، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي فَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الحَقِّ**»[4].

شبه ﷺ نفسه بالرجل وإنذاره بالعذاب القريب بإنذار الرجل قومه بالجيش المصبح، وشبه من أطاعه من أمته ومن عصاه بمن كذب الرجل في إنذاره ومن صدقه[5]، فسار من صدقوه في الصباح فنجوا من أعدائهم ومن الهلاك الذي يهددهم به الجيش، وبقي مكانه من كذبه فصبحهم الجيش فأهلك حرثه ونسله، وخرب دياره، وهكذا من يتبع رسول الله ﷺ وهديه؛ فإنه يكون في مأمن من الخطر واستئصال الأعداء لهم فيعيشون في أمن ورخاء آمنين على أنفسهم وأموالهم وتكون لهم النجاة في الأخرى من عذاب النار، أما من عصاه وكذب بما جاءه من عند ربه فإنه يعيش حياة الضنك في الدنيا وحياة العذاب والشقاء في الآخرة.

وهكذا يقرر هذا الحديث النبوي الشريف سنة من سنن الله تعالى في الهدى والضلال، وتصديق الرسل وتكذيبهم.

---

[1] السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، 12/2.

[2] صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ح2586.

[3] صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، ح6854. صحيح مسلم، كتاب الفضائل، بَابُ شَفَقَتِهِ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ وَمُبَالَغَتِهِ فِي تَحْذِيرِهِمْ مِمَّا يَضُرُّهُمْ، ح2283.

[4] صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، ح467. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ح2585.

[5] فتح الباري، 317/11.

الفرع الثالث: بيان السنن الإلهية من خلال الأحاديث التي ورد فيها ربط الأسباب بمسبباتها

إن ربط الأسباب بمسبباتها والنتائج بمقدماتها، قانون عام وشامل لكل ما في الكون، ولكل ما يحصل للإنسان في المعاش والمعاد، "فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب والله خالق الأسباب والمسببات"[1].

يقول الإمام ابن قيم الجوزية –رحمه الله–: "–إن الله سبحانه وتعالى– ربط الأسباب بمسبباتها شرعا وقدرا، وجعل الأسباب محل حكمته في أمره الديني والشرعي وأمره الكوني القدري، ومحل ملكه وتصرفه؛ فإنكار الأسباب والقوى والطبائع جحد للضروريات، وقدح في العقول والفطر، ومكابرة للحس، وجحد للشرع والجزاء، فقد جعل سبحانه مصالح العباد في معاشهم ومعادهم، والثواب والعقاب والحدود والكفارات والأوامر والنواهي والحل والحرمة ،كل ذلك مرتبطا بالأسباب قائما بها، بل العبد نفسه وصفاته وأفعاله سبب لما يصدر عنه، بل الموجودات كلها أسباب ومسببات، والشرع كله أسباب ومسببات، والمقادير أسباب ومسببات، والقدر جار عليها متصرف فيها؛ فالأسباب محل الشرع والقدر"[2].

- والسنة النبوية مملوءة من إثبات الأسباب ومسبباتها، وهي طريقة من الطرائق التي تبين بها السنن الإلهية، ومن أمثلة ما رواه عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ –رضي الله عنهما–، قوله: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: «**يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ، حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ، وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ، وَشِدَّةِ الْمَؤُونَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ، وَعَهْدَ رَسُولِهِ، إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ، إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ**»[3].

فهذه خمس خصال كل واحدة منها توجب نوعا أو أكثر من العذاب. فظهور الفاحشة يوجب الأوبئة والأمراض العامة والأوجاع التي لم تكن معروفة كالكوليرا والسل والسكتة القلبية والمعي الزائدة والفتق والسرطان، ومرض فقدان المناعة... وبالتالي كثرة الموت وغير ذلك من المصائب التي ابتلينا بها. والبخس في الكيل والميزان يتسبب عنه الجدب والقحط وارتفاع الأسعار وظهور الغلاء في الأغذية وغيرها، وتسلط الحكام على الناس بالجور والظلم وهضم حقوقهم. ومنع الزكاة ينشأ عنه تأخر الأمطار أو حبسها عنا نهائيا ولولا وجود الحيوانات العجماء بيننا لما مطرنا. ونقض عهود الله وعهود رسوله ﷺ التي كلفنا بها وأمرنا بالوفاء والالتزام بها يلزم منه جلب الأعداء إلينا وتسلطهم علينا واحتلالهم بلادنا واستعبادهم لنا ولأبنائنا

---

[1] مجموع الفتاوى، ابن تيمية، 70/8.

[2] شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ص188.

[3] سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب العقوبات، ح4019. قال الألباني: حديث حسن.

واستثمارهم ما عندنا من منتوجات بلادنا وأخذهم ما لدينا من ثروة وأموال مع إفسادهم مجتمعنا وديننا وأخلاقنا وقيمنا...

أما الإعراض عن إقامة حدود الله تعالى فشأنه أعظم وأعظم، وحاله أدهى وأمر، وفتنته أشمل وأعم، ذلك بأنه يوجب تشتت شمل الأمة وتفردها وتشرذمها، وجلب الفتن المتنوعة بينها، وتسلط بعضهم على بعض بجميع أنواع التسلطات من خصام ونزاع ديني وسياسي، إلى مهاجمات ومقاتلات، إلى انتهاك الأعراض والمحرمات إلى غير ذلك[1].

- عَنْ مَيْمُونَةَ –رضي الله عنها زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَا تَزَالُ أُمَّتِي بِخَيْرٍ مَا لَمْ يَفْشُ فِيهِمْ وَلَدُ الزِّنَا، فَإِذَا فَشَا فِيهِمْ وَلَدُ الزِّنَا، فَيُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِعِقَابٍ**»[2].

"هذا الحديث الشريف يدل دلالة واضحة على أن ظهور أولاد الزنا والبغاء من موجبات العذاب والهلاك، والعياذ بالله. ونحن اليوم نعيش في عصر قد انحرفت فيه كل أنظمة الحياة،لا من ناحية واحدة فحسب بل من جميع نواحيها الدينية والدنيوية والاجتماعية والفردية. وكل جيل طبعا إذا فسد مجتمعه وانحطت أخلاقه ظهر فيه أولاد الزنا وعم فيه الفجور وانتشر فيه أولاد البغاء، وهذا ما نلمسه في عصرنا الحاضر. فأولاد الزنا قد كثروا وعموا ... ولا شك أن مثل هذا يدل على انحلال عظيم من الدين وشر كبير عام في الأمة، فبالحري أن يكون من موجبات الهلاك والعذاب"[3].

- عن أَنَس بْن مَالِكٍ ﷺ، يَقُولُ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ، أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟ قَالَ: «**اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ**»[4].

إنه إرشاد من النبي ﷺ لهذا الأعرابي أن التوكل على الله تعالى لا يعارض اتخاذ الأسباب، وأن التوكل الحقيقي هو في عقل الناقة وربطها، وفيه بيان وإثبات لسنة الأسباب.

الفرع الرابع: الكشف عن السنن الإلهية أثناء الحديث عن فتن آخر الزمان

من طرائق السنة النبوية في الكشف عن السنن الإلهية عرضها في سياق أحاديث فتن آخر الزمان، ومن أمثلة ذلك:

---

[1] أسباب هلاك الأمم وسنة الله في القوم المجرمين، ص74.

[2] مسند أحمد بن حنبل، 412/44.

[3] أسباب هلاك الأمم وسنة الله في القوم المجرمين، ص75.

[4] سنن الترمذي، أبواب المناقب، باب في فضل الشام واليمن، ح2517. قال الألباني: حديث حسن.

- عَنْ ثَوْبَانَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا –أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا– حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا**»[1].

وهذه سنة من سنن الله تعالى في الخذلان، فما ذهب شيء من ملك المسلمين إلى أيدي الأجانب إلا بخذلان بعضهم لبعض ومساعدتهم للأعداء على أنفسهم، وتناحرهم وتنازعهم وتمزق قلوبهم...

والأدهى من ذلك والأمر ما يثيره أعداء الإسلام بين المسلمين من فتن هائجة، شغلتهم عن قضيتهم الكبرى والأساس قضية الإسلام ودعوة الإسلام؛ فانشغلوا عنها بالتنافس على الدنيا وطلب زخرفها وزينتها... بعد أن ضاع الميزان من بين أيديهم، فاستحرَّ القتل بهم، واستهانوا بدمائهم، وزاد ابتعادُهم عن دين الله، وزاد ابتلاء الله وعقابه، وسنة الله ماضية لا تتغير ولا تتخلف.

- عَنْ ثَوْبَانَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا**»، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «**بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ**»، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: «**حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**»[2].

"فهذه صفة المسلمين اليوم، فهم مع كثرتهم ليس لهم من الإيمان الصحيح والدين المتين ما يؤهلهم للانتصار الكامل على عدوهم الصهيوني والصليبي والشيوعي"[3]، بل صاروا بين الأمم الكافرة كالقصعة بين الأكلة.

تداعت عليهم الأمم من كل جانب، وسيطروا عليهم، وفقدوا سيادة العالم، وانتقلت هذه السيادة إلى الفرنجة (أوربا وأمريكا ودول الشرق)، وما ظلمهم الله، ولكنها سنته في النهوض والسقوط والانحطاط والازدهار التي لا تحابي أحدا ولا تتخلف عن موعدها.

وفي هذا الحديث النبوي الشريف تقرير لسنّة الله في الأسباب ومسبّباتها، فإنّ من أخذ بأسباب الوهن والضعف: ((حبّ الدنيا وكراهية الموت))، حصدته سنّة الله تعالى وأوكله الله إلى الدنيا، وبُلِيَ بالوهن والضعف.

---

[1] صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، بَابُ هَلَاكِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، ح2889.
[2] سنن أبي داود، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام، ح4297. قال الألباني: صحيح.
[3] أسباب هلاك الأمم، ص48.

وفيه تحذير من الذنوب والمعاصي، وأنّها من أهمّ أسباب تسليط الكفّار على المسلمين، ونفاذ سنة الله في الذنوب والمعاصي.

الفرع الخامس: بيان السنن من خلال ما يترتب على أفعال البشر السيئة من نتائج

ومن الأحاديث النبوية المتعلقة بهذا ما يلي:

- عَنِ ابْنِ عُمَرَ –رضي الله عنهما–، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ**»[1].

وكان الظالم في ظلمات يوم القيامة لأنه يكون فاقد النور الذي يسعى بين أيدي المؤمنين وبأيمانهم، فظلمه في الدنيا أكسبه في الآخرة ظلمة أو ظلمات حسب إقلاله منه أو إكثاره، والآخرة ليست إلا مظاهر للجزاء على الفعل الدنيوي إن نورا فنور وإن ظلمة فظلمة.

أما الشح فهو الحرص الشديد الذي يحمل صاحبه على أن يأخذ الأشياء من غير حِلِّها ويمنعها حقوقها، وحقيقته أن تتشوف النفس إلى ما حرم الله ومَنَع، وأن لا يقنع الإنسان بما أحل الله له من مال أو فرح أو غيرهما من المطاعم والمشارب والملابس التي أباحها لنا بل يتعدى ذلك إلى ما حرم الله تعالى. فالذي يقتصر على ما أبيح له فهو المؤمن الصالح، والذي يتعدى ذلك إلى ما منع منه فهو الشحيح المذموم، والشح وصف ساقط ينافي الإيمان.

ودلالة الحديث واضحة حيث إن هذه الحالة هي التي أهلكت من كان قبلنا حملتهم على سفك دمائهم واستحلال محارمهم ومقاطعة أرحامهم وكثرة فجورهم. وهذه سلسلة من البلايا وجراثيم الفساد فأي خير سيبقى بعد هذه الدواهي؟ فلا شك أن الأمة التي تتصف بهاتين الصفتين الساقطتين المظلمتين –الظلم والشح– سيكون عاقبتها الهلاك ومآلها الخراب، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ولا تحويلا ولا تغييرا. وما أصيب به الأقدمون من الأمم قد ابتلينا به فهلكنا كما هلكوا، فكم من دم أريق في سبيل الشح وكم من فرج أبيح لأجله وكم من رحم هجرت من جرائه وكم من محرم استبيح في الحصول عليه والاستئثار به ولا يزال الأمر يستفحل ويعظم، وهذا نبينا صلوات الله وسلامه عليه ينصحنا ويحذرنا من هذا الجرثوم الخراب ويأمرنا باتقائه والتحفظ منه ومحاربته خوفا من أن يقضي على مجتمعنا جزاء وفاقا[2].

---

[1] صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ح2579.

[2] أسباب هلاك الأمم، ص66-67.

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «**إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الْإِمَارَةِ، وَإِنَّهَا سَتَكُونُ حَسْرَةً، وَنَدَامَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَنِعْمَتِ الْمُرْضِعَةُ، وَبِئْسَتِ الْفَاطِمَةُ**»[1].

وهذا تقرير نبوي لأسباب الحسرة والندامة، فحب الإمارة وهي حب للدنيا، وإن استحلاها المرء فعواقبها وخيمة في الدنيا والآخرة؛ لأنها تؤدي إلى الاقتتال عليها، وضياع أمر المسلمين وثغورهم بسببها، وما وقع في تاريخ المسلمين من القتل بين الإخوة والأبناء والآباء ... لخير دليل على نتائج التنازع الكارثية عليها.

الإمارة مسؤولية ضخمة وأمانة عظيمة؛ جعلها الشارع لحفظ الدين وحراسة الدنيا وتحقيق مصالح العباد في المعاش والمعاد، لا لتكون سبب الهزائم وسفك الدماء وشراء الضمائر وخراب الدين والدنيا.

الفرع السادس: تقرير السنن الإلهية عن طريق التوكيد في سياق القسم

إن من بين أساليب السنة النبوية في عرض السنن الإلهية بيانها عن طريق التوكيد في سياق القسم، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ**»، قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ: اليَهُودَ، وَالنَّصَارَى قَالَ: «**فَمَنْ**»[2].

"لتتبعن سنَن من قبلكُمْ اتبَاعا بشبر ملتبس بشبر وذراع ملتبس بِذِرَاع، وَهَذَا كِنَايَة عَن شدَّة الْمُوَافقَة لَهُم فِي المخالفات والمعاصي، لَا فِي الْكفْر... وَوجه التَّخْصِيص: بجحر الضَّب، لشدَّة ضيقه ورداءته، وَمَعَ ذَلِك فَإِنَّهُم لاقتفائهم آثَارهم واتباعهم طرائقهم لَو دخلُوا فِي مثل هَذَا الضّيق الرَّدِيء لوافقوهم"[3].

إنه أسلوب السنة النبوية في التنبيه إلى أهمية السنن الاجتماعية وتأثيرها على المجتمع الإسلامي، وهنا يأتي أسلوبها في سياق التوكيد بالقسم (لتتبعن) لتحذير المسلمين من اتباع السنن التاريخية للأمم المنحرفة السابقة ولاسيما اليهود والنصارى؛ لأن ذلك الاتباع الأعمى لا ينجم عنه إلا الضيق والضنك والفساد، والواقع المعاصر من أسطع البراهين على صحة ذلك.

- عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ**»[4].

---

[1] سنن النسائي، كتاب القضاء، باب الحرص على الإمارة، ح5897. مسند أحمد بن حنبل، 140/16. قال شاكر: إسناده صحيح.

[2] صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، بَابُ مَا ذُكِرَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، ح3296. صحيح مسلم، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود، ح2669.

[3] عمدة القاري شرح صحيح البخاري، أبو محمد محمود الغيتابي العيني، 43/16-44.

[4] سنن الترمذي، أبواب الفتن، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ح2169. قال أبو عيسى: حديث حسن.

فأنت ترى أن النبي ﷺ جعل من العاقبة الخطيرة التي تبتلى بها الأمة في أعقاب السكوت عن المنكر، قانونا مستمرا أي سنة إلهية نافذة دائما.

ولقد أشار البيان الإلهي إلى هذه السنة في قول الله عز وجل: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (25)﴾(الأنفال)، وإنما سبب تلك الفتنة السكوت على المنكر، كما ذكر جمهور المفسرين.

إذن فنحن من هذه الآيات وهذين الحديثين، أمام سنة ربانية ماضية في عباده، وهي أن أي مجتمع يشيع فيه المنكر، مع السكوت عليه، يصبح عرضة للفتن وأنواع البلاء والمصائب، تصيب ذلك المجتمع كله. أما المقيمون على المنكر فيه، فلارتكابهم المنكر وعدم إقلاعهم عنه. وأما البقية ممن لم يشتركوا معهم في ارتكابهم، فلسكوتهم على المنكر الذي يرونه أو يعلمونه[1].

فالسكوت عن المعاصي مع فشوها والإعلان بها من موجبات العقاب والهلاك، لأن السكوت عليها يُغري أصحابها بالتمادي فيها واستفحال أمرها وانتشارها بكثرة. وذلك قد يُعدي إلى كل طبقات المجتمع الإسلامي، فيصبح الناس كلهم منحلين من الأخلاق الكريمة والآداب الإسلامية السامية...

ولذلك؛ فإن الأخذ على أيدي المجرمين والمتهتكين والظالمين والمفسدين والإنكار عليهم من أسباب النجاة والصلاح وانتشار الفضيلة والأخلاق الكريمة، وإهمال ذلك والإعراض عنه يوجب العذاب ويسد في وجوه المسلمين عدم استجابة دعواتهم وهذا من أكبر المصائب[2].

الفرع السابع: عرض السنن الإلهية في سياق جملة الشرط والجزاء

يتجلى عرض السنة النبوية للسنن الإلهية في سياق الجملة الشرطية، ومقدمات السلوك البشري ونتائجه، أو ترتب الجزاء الإلهي على الفعل البشري أو امتناعه بسبب ذلك الفعل في الأحاديث الآتية:

- عن هُشَيم: وإني سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «**ما مِن قومٍ يُعمَلُ فيهم بالمعاصي، ثم يَقدِرُونَ على أن يُغيِّروا ثم لا يُغيَّروا إلا يوشِكُ أن يعمَّهُمُ الله منه بعقاب**»[3].

إنها سنة من سنن الله في تغيير النعم في المجتمعات إذا تقاعست عن مهمتها في الإصلاح والتغيير وركنت إلى المفسدين ولم تضرب على أيديهم، ولم تغير المنكر مع القدرة على تغييره بأحد الوسائل الشرعية، فهو مداهنة مذمومة، تستوجب العقوبة.

قال الإمام النووي –رحمه الله–: "واعلم أن هذا الباب –أعني باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر– قد ضيع أكثره من أزمان متطاولة، ولم يبق منه في هذه الأزمان إلا رسوم قليلة جدا، وهو باب عظيم به

---

[1] من سنن الله في عباده، محمد سعيد رمضان البوطي، ص111.
[2] انظر: أسباب هلاك الأمم، ص78-79.
[3] سنن أبي داود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، ح4338، قال الأرنؤوط: حديث صحيح.

قوام الأمر وملاكه، وإذا كثر الخبث عم العقاب الصالح والطالح، وإذا لم يأخذوا على يد الظالم أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقابه، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم، فينبغي لطالب الآخرة والساعي في تحصيل رضا الله عز وجل أن يعتني بهذا الباب؛ فإن نفعه عظيم لا سيما وقد ذهب معظمه ويخلص نيته ولا يهادن من ينكر عليه لارتفاع مرتبته"[1].

ولذلك فإن من الأسباب التي تحل العذاب العاجل في الأمم فشو المنكرات وشيوعها، وذلك عندما تقصر الأمة في القيام بواجبها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال العلامة القاري –رحمه الله–: "إذا كان الذين لا يعملون المعاصي أكثر من الذين يعملونها فلم يمنعوهم عنها عمهم العذاب. وقال العزيزي: لأن من لم يعمل إذا كانوا أكثر ممن يعمل كانوا قادرين على تغيير المنكر غالبًا، فتركهم له رضًا به"[2].

- عن عبد الله بن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا**[3] **رأيتم أُمتي تَهَابُ الظالم أن تقول له: إنك أنت ظالم، فقد تُوُدِّعَ منهم**»[4].

والمعنى في هذا: "أنهم إذا خافوا على أنفسهم من هذا القول فتركوه كانوا مما هو أشد منه، وأعظم من القول، والعمل أخوف، وكانوا إلى أن يدعوا جهاد المشركين خوفا على أنفسهم، وأموالهم أقرب، وإذا صاروا كذلك فقد تودع منهم، واستوى وجودهم وعدمهم"[5].

إن الحديث النبوي الشريف يقرر سنة من سنن الله تعالى الاجتماعية؛ فحين يتعطل الإحساس بالمسؤولية الجماعية، ويقع التسليم بالمنكر، فحينئذ تكون الأمة في طريقها إلى تغيير نعم الله بها، وحلول نقمه وعقابه بمنازلها؛ لأن سنة الله تعالى لا تحابي أحدا، ولا تتعطل في أي حال.

- عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ**»[6].

والحديث يبين ثلاثة أسباب من أسباب العقاب الإلهي:

الأول: المعاملة بالغش والخديعة والخيانة وأنواع الخلابة والمكر والحيل. فقد عبر ﷺ عن كل ذلك بنوع واحد منها وهي العينة لأنها من أقبح أنواع الحيل والخديعة، ونبه بها على كل ما ينافي النصيحة والعطفة

---

[1] المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، 24/2.
[2] عون المعبود شرح سنن أبي داود، عون المعبود 329/11.
[3] (إذا) هنا متضمنة معنى الشرط.
[4] مسند أحمد بن حنبل، 86/6. قال أحمد شاكر: إسناده صحيح.
[5] شعب الإيمان، البيهقي، 45/10.
[6] سنن أبي داود، باب في النهي عن العينة، ح3462. قال الألباني: صحيح.

بالرأفة ومعاملة المسلمين بالجميل وما يعود عليهم بالنفع الكامل. وقد أصبح المسلمون اليوم من أغرق الناس في الاتصاف بهذه الرذائل الساقطة.

الثاني: اتباع أذناب البقر والمراد بذلك لزوم الحراثة واستثمار الأرض والتشاغل بها عن الدين ومشاعره ومهماته والتوغل في الاكتساب والانقطاع إلى جمع الدنيا وحطامها. وعُبر باتباع أذناب البقر لأن المخاطبين وقته ﷺ كانوا أهل زراعة وحراثة وفلاحة، وإلا فكل أنواع الاكتساب داخلة في ذلك إذا شُغل بها المسلمون عن مهمات دينهم الفردية والاجتماعية.

الثالث: ترك الجهاد أي قتال أعداء الدين الذين استباحوا ثغور المسلمين، وانتهكوا حرماتهم، واعتدوا على دينهم وحماهم وأنفسهم وأموالهم[1].

- عن النُّعْمَان بن بَشِيرٍ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ**»[2].

إن هذا الحديث النبوي الشريف يشير إلى جوهر قضية تربوية سلوكية، ألا وهي سنة الله في القلوب. فالسنن الإلهية مرتبطة ارتباطا وثيقا بفقه القلوب. فصلاح الإنسان بصلاح قلبه، وصلاح القلب أساس صلاح المجتمع، وفساده فساد للإنسان والمجتمع.

قال سلطان العلماء العز بن عبد السلام –رحمه الله-: "مبدأ التكاليف كلها ومحلها أو مصدرها القلوب، وأول واجب يجب –بعد النظر– معرفة الله ومعرفة صفاته، وهي شرط في جميع عباداته وطاعاته، والطاعات كلها مشروعة لإصلاح القلوب والأجساد، ولنفع العباد في الآجل والمعاد إما بالتسبب وإما بالمباشرة. وصلاح الأجساد موقوف على صلاح القلوب، وفساد الأجساد موقوف على فساد القلوب.

ولذلك قال النبي ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»، أي إذا صلحت بالمعارف ومحاسن الأحوال والأعمال صلح الجسد كله بالطاعة والإذعان، وإذا فسدت بالجهالات ومساوئ الأحوال والأعمال فسد الجسد كله بالفسوق والعصيان.

وطاعة الأبدان بالأقوال والأعمال نافعة بجلبها لمصالح الدارين أو إحداهما، وبدرئها لمفاسد الدارين أو إحداهما. والأحوال ناشئة عن المعارف؛ والمقصود: ناشئة عن المعارف والأحوال؛ والأعمال والأقوال ناشئان عن القصود الناشئة عن المعارف والأحوال، وأحكام الله كلها مصالح لعباده، فطوبى لمن قبل نصح ربه، وتاب عن ذنبه"[3].

---

[1] أسباب هلاك الأمم، ص95.

[2] صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب فَضْلِ مَنِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، ح52.

[3] قواعد الأحكام في مصالح الأنام، 1/197-198.

ويقول الإمام ابن قيم الجوزية –رحمه الله-: "ولما كان القلب لهذه الأعضاء كالملك المتصرف في الجنود، الذي تصدر كلها عن أمره، ويستعملها فيما شاء، فكلها تحت عبوديته وقهره، وتكتسب منه الاستقامة والزيغ، وتتبعه فيما يعقده من العزم أو يحله، قال النبي ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله». فهو ملكها، وهي المنفذة لما يأمرها به، القابلة لما كان يأتيها من هديته، ولا يستقيم لها شيء من أعمالها حتى تصدر عن قصده ونيته. وهو المسؤول عنها كلها «لأن كل راع مسؤول عن رعيته»[1] كان الاهتمام بتصحيحه وتسديده أولى ما اعتمد عليه السالكون. والنظر في أمراضه وعلاجها أهم ما تنسك به الناسكون.

ولما علم عدو الله إبليس أن المدار على القلب والاعتماد عليه، أجلب عليه بالوساوس، وأقبل بوجوه الشهوات عليه، وزين له من الأقوال والأعمال ما يصده عن الطريق، وأمده من أسباب الغي بما يقطعه عن أسباب التوفيق، ونصب له من المصايد والحبائل ما إن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق، فلا نجاة من مصائده ومكائده إلا بدوام الاستعانة بالله تعالى، والتعريض لأسباب مرضاته، والتجاء القلب إليه، وإقباله عليه في حركاته وسكناته، والتحقق بذل العبودية الذي هو أولى ما تلبس به الإنسان ليحصل له الدخول في ضمان ﴿إِنّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: 42]. فهذه الإضافة هي القاطعة بين العبد وبين الشياطين. وحصولها يسبب تحقيق مقام العبودية لرب العالمين. وإشعار القلب إخلاص العمل ودوام اليقين، فإذا أشرب القلب العبودية والإخلاص صار عند الله من المقربين، وشمله استثناء ﴿إِلاّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: 40]"[2].

خاتمة البحث:

هكذا اعتنى الحديث النبوي الشريف بالسنن الإلهية عناية كبيرة، ويتجلى ذلك في فأساليبه المتنوعة في عرضها: إما بعرضها من خلال قصص الغابرين، وإما بالتنبيه عليها بالأمثال النبوية، أو الحديث عنها في سياق ترتب المسببات على أسبابها، أو في سياق ما يترتب على أفعال البشر السيئة من نتائج، أو التوكيد في سياق القسم، أو في سياق الجملة الشرطية، أو من خلال ما تضمنته أحاديث فتن آخر الزمان من بيان لسنن الله تعالى الثابتة والمطردة. وأ غير ذلك.

هذه أهم أساليب الحديث النبوي الشريف في عرض السنن الإلهية، وقفنا عليها من خلال استقرائنا لنماذج من نصوصه، وتدبرنا لألفاظها.

والحمد الله رب العالمين في البدء والختام.

---

[1] قال النبي ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ...» انظر الحديث بطوله في: صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، ح853. صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم، ح1829.

[2] إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، 1/5-6.

ثبت المصادر والمراجع:

1. – أسباب هلاك الأمم وسنة الله في القوم المجرمين والمنحرفين، أبو الفتوح عبد الله التليدي، دار البشائر الإسلامية، بيروت–لبنان، ط2: 1418هـ/1998م.

2. – إعلام الموقعين عن رب العالمين، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، (ت: 751هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1: 1411هـ/1991م.

3. – إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض.

4. – السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب، مكتبة الرشد لنشر والتوزيع–الرياض، الدار العثمانية–عَمَّان، ط1: 1425هـ/2004م.

5. – سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك الترمذي، (ت: 279هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط2: 1395 هـ/1975م.

6. – سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: 275هـ)، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط ومحَمَّد كامِل قره بللي، دار الرسالة العالمية، ط1: 1430هـ/2009م.

7. – سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد (ماجة) القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (ت: 273هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية–فيصل عيسى البابي الحلبي.

8. – سنن النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني النسائي (ت: 303هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط2: 1406هـ/1986م.

9. – شعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني البيهقي (ت: 458هـ)، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، مكتبة الرشد–الرياض، الدار السلفية بومباي بالهند، ط1: 1423هـ/2003م.

10. – شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1398هـ/1978م.

11.- صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه)، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي (ت: 256هـ)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1: 1422هـ.

12.- صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ)، أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت: 261هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

13.- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي بدر الدين العيني (ت: 855هـ)، دار إحياء التراث العربي-بيروت.

14.- عون المعبود شرح سنن أبي داود، ومعه حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته، أبو عبد الرحمن شرف الحق محمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر الصديقي العظيم آبادي (ت: 1329هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، ط2: 1415هـ.

15.- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي (ت: 852هـ)، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة- بيروت، 1379هـ.

16.- قواعد الأحكام في مصالح الأنام، أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (ت: 660هـ)، راجعه وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1414هـ/1991م.

17.- مجموع الفتاوى، ابن تيمية، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، 1416هـ/1995م.

18.- مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت: 241هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث – القاهرة، ط1: 1416هـ/1995م.

19.- من سنن الله في عباده، محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، ط1: 2011.

20.- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحي بن شرف النووي (ت: 676هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2: 1392هـ.